

التحرشات الأراغونية على مدن وسواحل المغرب الأدنى والأوسط
(681-689 هـ/1282-1290 م)

Aragonese attacks on the cities and coasts of the lower and central Maghreb (681-689 AH/1282-1290 AD)

بومداح مرزاق(*)

المدرسة العليا للأساتذة-بوزريعة، (الجزائر)، merrzzakk@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/08/ 25 تاريخ القبول: 2025/02/ 25 تاريخ النشر: 2025/06/ 03

كان لسقوط المدن الأندلسية تحت الاحتلالين القشتالي والأراغوني قد ولد لدى هؤلاء الرغبة في الانتقام من دول المغرب الإسلامي التي كانت تنطلق منها الجيوش لمساندة مسلمي الأندلس في حروبهم ضد الممالك النصرانية، ومن أشهر هاته الممالك نذكر مملكة أراغون التي عازمت على القيام بعدة حملات عسكرية لاحتلال سواحل المغربين الأدنى والجزء الشرقي من المغرب الأوسط الذي كان خاضعا آنذاك للدولة الحفصية، وقد تزايد عدوان مملكة أراغون خاصة في الربع الأخير من القرن 7 هـ/13 م حينما كانت الدولة الحفصية تعاني أوضاعا سياسية واجتماعية واقتصادية صعبة، وقد أدى ذلك العدوان إلى احتلال بعض مدن المغرب الأدنى كجزيرة جربة وقرقنة، وتدمير وتخريب بعض مدن المغرب الأوسط والأدنى كالقل، مرسى الخزر، قابس، سوسة.

الملخص

الكلمات الدالة: مملكة أراغون؛ المغرب الأدنى؛ المغرب الأوسط؛ الحملات الصليبية؛ العصور الوسطى.

Abstract:

The fall of the Andalusian cities under Castilian and Aragonese occupation created in these people a desire to take revenge on the countries of the Islamic Maghreb from which armies were launched to support the Muslims of Andalusia in their wars against the Christian kingdoms. Among the most famous of these kingdoms is the Kingdom of Aragon, which decided to carry out several military campaigns to occupy the coasts of the lower Maghreb and the eastern part of the central Maghreb, which was then subject to the Hafsid state. The aggression of the Kingdom of Aragon increased, especially in the last quarter of the

* المؤلف المرسل.

7th century AH/13th century AD, when the Hafsid state was suffering from difficult political, social and economic conditions. This aggression led to the occupation of some cities of the lower Maghreb, such as the island of Djerba and Kerkennah, and the destruction and devastation of some cities of the central and lower Maghreb, such as El Kala, Marsa al Khazar, Gabes, and Sousse.

Keywords: Kingdom of Aragon; Lower Maghreb ; central Maghreb ; Crusades; Middle Ages.

1. مقدمة:

بعد هزيمة دولة الموحدين في معركة حصن العقاب على يد القشتاليين في بلاد الأندلس، والتي جرت حوادثها في سنة 609هـ/1212م تفككت هذه الدولة المتزامية الأطراف إلى عدة دويلات، وكانت بلاد المغرب الأدنى والجزء الشرقي من بلاد المغرب الأوسط منذ سنة 627هـ/1229م خاضعة للحكم الحفصي، وقد شهدت هذه المنطقة بعد نهاية حكم المستنصر الحفصي في سنة 675هـ/1277م نهاية عهد القوة والازدهار.

والموضوع الذي بين أيدينا يبحث في العدوان الأراغوني على بلاد المغرب الأدنى والجزء الشرقي من المغرب الأوسط الخاضع آنذاك لسلطة الدولة الحفصية، مع ذكر أهم المعطيات والظروف المتحركة في هذا العدوان داخليا وخارجيا، وما ترتب عنه من انعكاسات خطيرة على مستوى الدولة الحفصية خاصة وبلاد المغرب الإسلامي عامة، ولتفكيك هذه الإشكالية نطرح مجموعة من الأسئلة الفرعية محاولين الإجابة عنها من خلال هذه الدراسة، وهي كالتالي:

هل ساهمت أوضاع السلطنة الحفصية في إغراء مملكة أراغون على شن حملاتها العدوانية خلال الربع الأخير من القرن 7هـ/13م؟ وفيما تمثلت أهم الاستراتيجيات التي اعتمدتها مملكة أراغون في شن حملاتها العدوانية على سواحل المغرب الأدنى والأوسط؟ وما هي أبرز الهجمات الاحتلالية التي قامت بها مملكة أراغون على المنطقة؟ وهل لهذه الغزوات العسكرية الأراغونية انعكاسات سلبية وخاصة في الجانبين السياسي والاجتماعي؟

ولدراسة هذا الموضوع قمنا بوضع خطة له بداية بمقدمة مهدنا فيه للموضوع وعرفنا به، ثم تطرقنا لأوضاع بلاد المغرب الأدنى والأوسط قبيل العدوان الأراغوني، وبعدها قمنا بذكر أهم الحملات العدوانية التي قامت بها مملكة أراغون على بلاد المغرب الأدنى والأوسط، ثم تناولنا أهم انعكاسات الغزو الأراغوني على المنطقة، وختمنا الموضوع بخاتمة ذكرنا فيها أهم النتائج والتوصيات.

2. أوضاع بلاد المغرب الأدنى والأوسط قبيل العدوان الأراغوني:

كانت بلاد المغرب الأدنى والجزء الشرقي من بلاد المغرب الأوسط في أواخر القرن 6هـ/13م خاضعا لسيطرة السلطنة الحفصية، وسنحاول من خلال هذا المبحث دراسة أهم الأوضاع التي كانت تمر بها الدولة الحفصية آنذاك.

2. 1 ضعف السلاطين الحفصيين وتدخل رجال الدولة في شؤون الحكم:

تذكر لنا المصادر التاريخية أن أبا الحسن يحيى بن عبد الملك الأندلسي المشهور بابن الحبير كان من كبار رجال الدولة الحفصية، وقد تمكن في عهد السلطان الحفصي المستنصر (647-675هـ/1249-1277م) من التدرج في المناصب إلى أن ارتقى إلى منصب ولاية الديوان، وبعد تولي الواثق (675-679هـ/1277-1279م) الحكم بعد وفاة أبيه المستنصر، طمح ابن الحبير إلى تولي مناصب أعلى من ذلك، فعندما أصبح كاتب الواثق بأمور الدولة تمكن من عزل أحد كبار الدولة ومن أشد خصومه، وهو أبو الحسين الأندلسي بعد أن أوغر عليه صدر الواثق؛ فتم القبض عليه وزج به في سجن القصبية، وتعرض للتعذيب حتى توفي في شهر ذي الحجة من سنة 676هـ/1278م، وعُهد بمهمة مصادرة أملاكه إلى صاحب الشرطة الموحيدي عبد الرحمن بن ياسين بن أبي الأعلام، وما إن تمكن من القضاء على خصمه هذا حتى أصبح ابن الحبير المتصرف الحقيقي في شؤون الإدارة العليا للبلاد¹. وفي الحقيقة فإن الذي عجل بنهاية السلطان الحفصي الواثق هو الصراع الشديد القائم آنذاك بين سعيد بن أبي الحسين وبين يحيى بن عبد الملك المعروف بالخبير².

وكلف ابن الحبير أحد العلوج المعتنقين للإسلام وكان اسمه مدافع بإدارة الشؤون المالية، وكان السلطان الحفصي الواثق بالنسبة إليه كما يذكر ابن القنفذ كالحجور في يد وليه، واستغل ابن الحبير

مكانته الكبيرة في الدولة لجمع الأموال الطائلة والميل إلى اللهو والملذات، ثم قام بعزل والي بجاية مُجَّد بن أبي هلال الهنتاتي الموحد، وعيَّن بدله شقيقه أبي علي إدريس الذي امتاز بالاستبداد والكبرياء، وسوء التصرف مع الأهالي؛ مما أدى إلى استياء أهالي بجاية، وتذمرهم من هذا الوضع، وخاصة بعد قيامه بطرد شيوخ الموحدين من مجلس السلطان الحفصي، وتمكن جُنْد بجاية الثائرين ضد هذه السياسة وبقيادة أبي عبد الله مُجَّد بن أبي هلال الهنتاتي من قتل ابن الحبيّر في سنة 677هـ/1278م³.

2. استيلاء عم الواثق على الحكم وانتشار الفوضى والاضطرابات السياسية:

كان الأمير إسحاق وهو شقيق المستنصر قد ثار على أخيه في بداية حكمه مستعينا بقبائل الدواودة⁴، ويذكر لنا المؤرخون أن إسحاق قد تمرد على أخيه السلطان المستنصر منذ سنة 1253م، وبعد فشل هذا التمرد التجأ إلى أمير مملكة غرناطة مُجَّد بن الأحمر⁵ (629-672هـ/1232-1273م)، وبعد وصول نبأ وفاة أخيه المستنصر، وتلقي المساعدات العسكرية من ملك أراغون بيدرو الثالث (1276-1285م) الذي كان يطمح في وجود ملك موال له في الدولة الحفصية لتحقيق أهدافه الصليبية، أجمع إسحاق أمره على السفر وعبور البحر لطلب حقه في الملك، لكنه تردد برهة من الزمن، فاضطر إلى التوجه إلى تلمسان⁶، ونزل في حضرة السلطان الزياني يغمراسن (633-681هـ/1235-1282م)، ولم يمض وقت طويل حتى قام أهل بجاية بقتل وال مدينتهم أبي علي إدريس، وبعد تعيين والي بجاية الجديد وهو ابن أبي هلال، قام ومعه أعيان بجاية بإرسال برسالة إلى أبي إسحاق يطلبون منه الحضور، وبعثوا له بالبيعة، فاستجاب أبو إسحاق لطلبهم ودخل مدينة بجاية في شهر ذي القعدة من سنة 677هـ/1278م؛ فتم تقديم له البيعة، ثم بعدها توجه إلى قسنطينة -وكان واليها عبد العزيز بن عيسى بن داود أحد أقرباء ابن الحبيّر -ولكنه لم يتمكن من اقتحامها، فغادرها متوجها إلى تونس، ولما وصل إلى مدينة باجة قرر قادة الجيش الحفصي الاستسلام، ومبايعة أبي إسحاق بالسلطنة، وربما استسلم هؤلاء القادة بسبب المؤامرات التي حاكها ابن الحبيّر ضدهم، وفي يوم الأحد الثالث من شهر ربيع الثاني كما يذكر الزركشي من سنة 678هـ/1279م قرر السلطان

الحفصي الوثائق التنازل عن العرش لعمه إسحاق بعد أن تخلى عنه الجنود، وبقي وحيدا، وأطلق على الوثائق اسم المخلوع لأنه خلع نفسه عن الملك⁷.

وحسب ما يذكره لنا المؤرخون فإن السلطان الحفصي أبا إسحاق رغم تنازله عن الحكم لابن أخيه الوثائق وخلع نفسه إلا أن عمه إسحاق، وبعد وشاية قدمت له، والتي مفادها أن ابن أخيه قد أرسل إلى قائد الجيش النصرائي، وطلب منه الثورة على عمه بالليل، فقام السلطان الحفصي إسحاق بالقبض على الوثائق مع أبنائه الثلاثة وهم الفضل والطاهر والطيب، وتم قتلهم جميعا في شهر صفر من سنة 679هـ/1280⁸.

أدت حركة أبي إسحاق هذه إلى نتائج خطيرة على الدولة الحفصية حيث فُتح باب الفوضى والفتنة على مصراعيه، إذ أن أبا إسحاق أخذ منذ توليه الحكم يتتبع رجالات دولة ابن أخيه الوثائق الملقب بالمخلوع، ويمتحنهم بالسجن والقتل ومصادرة الأموال، يضاف إلى ذلك قسوته وشدة وطأته على الناس وانغماسه في اللهو والملذات، فضلا عن السياسة غير الحكيمة التي انتهجها مع القبائل الهلالية من خلال منحهم الامتيازات العديدة نتيجة للمساعدة التي قدموها له للوصول إلى العرش، فأباح لهؤلاء القبائل إثر ذلك حرية التصرف كما يشاؤون والاعتداء على سكان المدن والقرى، والأرياف، فحاكاهم في ذلك غيرهم من القبائل العربية الأخرى وبعض قبائل البربر؛ فأخذ الجميع يعيشون الفساد في نواحي البلاد، ويقومون بعمليات النهب والسلب، وبذلك أفلت زمام الأمور من يد السلطة المركزية⁹.

2. 3 ثورة الدعي أحمد بن مرزوق:

ظهر رجل اسمه أحمد بن مرزوق¹⁰، وأعلن صلته بالبيت الحفصي، وادعى أن اسمه الفضل ابن يحيى الوثائق المخلوع، وكان ذلك في الرابع من شهر محرم من سنة 681هـ/1283م، وبانضمام مرغم بن صابر شيخ عرب دباب بطرابلس إلى صفه، قام ابن مرزوق بإعلان الثورة ضد السلطان الحفصي أبا إسحاق، وتمكن ابن مرزوق من دخول مدينة قابس في شهر رجب من سنة 681هـ/1282م، ثم وصلته بيعة كل من المدن التالية: جربة والحامة ونفزاوة وتوزر، وفي شهر رمضان من نفس السنة جاءته

بيعة قفصة؛ فاشند أمر ابن مرزوق وعظم شأنه وقوته، فاضطر السلطان أبو إسحاق إلى خلع نفسه عن العرش، ومبايعة ابنه الذي تلقب بالمعتمد، وخرج هذا الأخير للقاء ابن مرزوق في تونس حيث التقى الجمعان في بوطاية قلعة سنان، فانهزم المعتمد، وقُتل، وبعد وصول هذا الخبر إلى بجاية فرّ السلطان الحفصي المخلوع مع ابنه أبي زكريا، فتمكن هذا الأخير من النجاة، وتم القاء القبض على أبي إسحاق، وقتله في 19 ربيع الأول من سنة 682هـ/1283م¹¹.

وبويع أحمد بن مرزوق بعد يومين من فرار السلطان الحفصي أبا إسحاق من تونس باعتبار أنه الفضل بن أبي زكريا يحيى الوائق، وكان ذلك في يوم الخميس 27 من شوال سنة 681هـ/1282م، إلا أن ابن مرزوق لم يتمكن من فرض سيطرته على كامل بلاد إفريقية نظرا لكونه كما يذكر ابن القنفذ ظلما كثير القتل للناس، واتصلت القبائل العربية بأمر حفصي آخر كان لاجئا في قلعة سنان، وهو الأمير عمر، حيث ذهب إليه وفدهم، وبايعوه بالخلافة في ربيع الأول من سنة 683هـ/1284م، فزحف هذا الأخير إلى تونس مدعوما من عدة بطون من القبائل الهلالية من ناحية، ومستندا إلى الاتفاق الذي عقده مع ملك أراغون بيدرو الثالث (1276-1285م) حيث تمكن من دخول المدينة، وقام بقتل ابن مرزوق بعد اعترافه بادعائه الكاذب للحفصيين، وبويع بالخلافة في 25 ربيع الثاني 683هـ/1284م¹².

2. 4 انقسام الدولة الحفصية إلى دولتين:

تذكر الروايات التاريخية أنه في سنة 682هـ/1283م وبعد هزيمة السلطان الحفصي أبو إسحاق أمام أحمد بن مرزوق، وتمكن أبو زكريا ابن السلطان أبي إسحاق بعد مقتل والده من الفرار إلى صهره السلطان عثمان بن يغمراسن الزياني بتلمسان، ولكن السلطان الزياني قد اعترف بابن مرزوق المزعوم كسلطان للدولة الحفصية، مما اضطر بالأمر الحفصي إلى الالتجاء إلى القبائل العربية؛ حيث يذكر ابن خلدون أنه لحق بدادود بن هلال بن عطايف أمير بني يعقوب وكافة بني عامر من زغبة، وبعد أن تمكن أبو حفص من إعادة السلطة الحفصية إلى عائلته والقضاء على ابن مرزوق، هب الأمير الحفصي إلى

المطالبة بحقه في تولي الحكم بعد مقتل أبيه، وحظي هذا الأخير بمساندة القبائل العربية كقبيلة الذواودة وبنو سدويكش¹³.

وبفضل المساعدات التي تلقاها أبو زكريا من بعض القبائل العربية تمكن من الاستيلاء على مدينتي بجاية وقسنطينة، واستطاع منذ سنة 684هـ/1285م من بسط نفوذه على كامل القسم الغربي من السلطنة الحفصية، واعترفت أيضا مدينة تدلس (دلس) وجزائر بني مرغنة (مدينة الجزائر الحالية) بسلطته، واتخذ أبو زكريا من مدينة بجاية عاصمة لمملكته الجديدة، وتلقب بالمنتخب لإحياء دين الله، وقد حاول أبو زكريا الاستيلاء على القسم الشرقي من السلطنة الحفصية لكنه لم يتمكن من ذلك، ورضي أبو زكريا أن يبقى مستقلا بالقسم الغربي من بلاد إفريقية، واستمر في الحكم بهذا القسم حتى وفاته في سنة 700هـ/1300م، وكان أبو زكريا كما يذكر ابن القنفذ يقسم السنة بين البلدين بجاية وقسنطينة¹⁴.

2. 5 استقلال بعض المناطق الداخلية عن السلطة المركزية:

ظهر في القسم الشرقي من السلطنة الحفصية الذي كان خاضعا للسلطان أبي حفص عمر بعض النزعات الاستقلالية؛ التي ستؤول إلى انفصال بعض المدن عن سلطة الأمير مباشرة؛ ففي منطقة الجريد شب نزاع بين بني سدادة وبين بني كنومة المقيمين في ضواحي تقيوس، وكان ذلك في سنة 686هـ/1287م، وتم منحهم حق التصرف في شؤونهم واختيار ولائهم بكل حرية، مقابل دفع الضرائب، وكان هذا أول استبداد لأهل الجريد كما يذكر ابن خلدون، وفي منطقة توزر تم إخماد الثورة التي قام بها أحمد بن يملول ضد السلطة المركزية، وفي مدينة قابس تمكن عبد الله بن مكي من الحصول على استقلال شبه تام؛ فكان يستقبل خصوم سلطان تونس أمثال أبي دبوس وغيرهم¹⁵.

كما أقر أبو حفص سلطان تونس سيطرة البدو على سكان منطقة التل، وكان ذلك سببا في تفكك السلطة المركزية لفائدة البدو الرحل، وقد تجلّى ذلك بوضوح في تهقر المدينة الحضرية أمام زحف البدو، سواء في سهول القمح بباجة أو في منطقة الزياتين بالساحل الواقعة خلف وجنوب

سوسة والمهدية، مما أدى إلى اختلال الأمن في الطرقات والمسالك، وتدهور الأوضاع الاقتصادية للدولة¹⁶.

2. 6 انتشار المجاعة في سائر أنحاء بلاد المغرب الأدنى والأوسط:

بعد اعتلاء أبي إسحاق عرش السلطنة الحفصية، وفي السنة الثانية من حكمه حدثت مجاعة عظيمة شملت معظم أراضي بلاد المغرب الأوسط والأدنى (إفريقية)، ويصف لنا الزركشي هذه المجاعة بقوله: "وفيها أيضا (أي في سنة 680هـ/1281م) رأى الناس آية عظيمة في الزرع: أكل القمح فريكا، ثم عدم في سنبله فإذا حصد جمعت الأغمار ولم يوجد فيها شيء، فكان البقر الذي أكل ذلك الزرع تلف، وكان ذلك في جميع إفريقية"، فأحدثت هذه المجاعة أضرارا كبيرة للناس، بل وحتى الحيوان أصابه الضرر أيضا¹⁷.

يتضح لنا من خلال ما سبق أن بلاد المغرب الأدنى والأوسط قد كانت تعاني أوضاعا داخلية صعبة مما هيأت الأجواء لملك أراغون للقيام بمحاولاته العديدة لاحتلال المنطقة، والسيطرة عليها.

3. العدوان الأراغوني على سواحل المغربين الأدنى والأوسط:

قامت الإستراتيجية التي اعتمدها ملوك أراغون¹⁸ للاستيلاء على أراضي بلاد المغربين الأدنى والأوسط على ثلاث دعائم رئيسية وهي: مساندة المطالبين بالعرش الحفصي في الوصول إلى الحكم، ودعم الثوار وذوي الطموحات الاستقلالية لإيجاد موطن قدم لهم في إفريقية يكون نقطة للتوسع لهم فيما بعد، والثانية: تنشيط حركة التنصير، والثالثة: اللجوء إلى القوة العسكرية، وأضاف توفيق المدني دعامة أخرى وهي: احتلال جزء كبير من بلاد المغرب الأوسط حتى يجعله قاعدة لاحتلال باقي أجزائه، فيمكنه ذلك من ضرب مسلمي الأندلس من الخلف، ويقطع عنهم كل طريق للمدد أو الانسحاب¹⁹.

3. 1 محاولة الجيش الأراغوني احتلال مدينة قسنطينة (681هـ/1282م)

بعد أن تولى عرش السلطنة الحفصية أبو إسحاق إبراهيم بمساعدة ملك أراغون بيدرو الثالث، لم تمض أكثر من سنتين ونصف حتى اندلعت ثورة والي قسنطينة أبو بكر بن موسى الملقب بابن الوزير،

وكان من قبيلة كومية البترية، وكان هذا الوالي في فترة ولايته على قسنطينة كما يذكر ابن القنفذ قد عاث فيها فسادا وظلما وقتلا، وبعد أن علم ابن الوزير أنه ليست له عصبية مرهوبة، وأنه لا بد له في نظره من الاعتماد على ملوك النصارى لتحقيق أهدافه في الملك وجمع الأموال، فقام بمراسلة بيدرو الثالث ملك أراغون، يُطمعه في قسنطينة، ويعدّه أنه سيضع كل جيشه تحت تصرفه، وأنه سيكون ذراعه الأيمن، وخادمه الأمين في المنطقة.²⁰

وبعد أن تبين لابن الوزير في صيف 678هـ/1279م أن ملك أراغون يولي اهتماما كبيرا بشؤون إفريقية، وكان على علم بالاستعدادات الحربية التي كان يقوم بها هذا الملك النصراني للهجوم على أراضي بلاد المغرب الإسلامي، طلب منه الإعانة، وتلقى منه وعدا بالمساعدة العسكرية، ذلك أن بيدرو الثالث قد اقتنع أنه لا يمكن التعويل على التحالف مع أي إسحاق السلطان الحفصي، وخاصة بعد أن حاول التفاوض معه بشأن إبرام اتفاق على قدم المساواة، وبادر إلى إرسال سفارة يبدو أنها لم تسفر عن أي نتيجة، ولذلك فقد جاء طلب ابن الوزير في وقته، ولاسيما وقد سبق أن جلب إلى خدمته عددا من الجنود النصارى، كما أعلم حليفه الأوروبي بأنه مستعد لاعتناق الديانة النصرانية، وبالتالي أتاح هذا العرض فرصة جديدة لملك أراغون للتدخل مباشرة في بلاد المغرب الإسلامي.²¹

تجهز ملك أراغون لاحتلال مدينة قسنطينة، فأرسل رسالة إلى ابن الوزير يُعلمه بأنه يجهز أسطوله من أجل ذلك، وأنه يجمع رجاله، وسيكون عما قريب فوق أرض المعركة، وكان ابن الوزير قد حدد لملك أراغون مكان نزول القوات الصليبية، ويؤكد له أنه إذا نزل بالقل مع ثمانمائة من الفرسان، وألفين من المشاة فإن طريق قسنطينة سيكون مفتوحا أمامه، وكان ابن الوزير يحيط نفسه بحرس غفير من الجند النصراني، ولعل هؤلاء الجند هم من أشاروا عليه للاستنجاد بالملك الأراغوني، وكان يوجد منهم ببلاد المغرب الإسلامي كما يذكر المؤرخ برنارد دسكلوت حوالي مائة ألف جندي²² نصراني لحماية عروش وسلاطين هاته الدول، وكان المظنون أن هذه الجموع النصرانية كلها ستقف وقفة الرجل الواحد حول ملك أراغون حينما تطأ قدميه أرض المغرب الإسلامي، كما وضع ملك أراغون في

اعتباره أمرا آخر هو أن السلطان أبا إسحاق الحفصي لن يقف في وجهه نظرا لمساندته إياه في الوصول إلى العرش.²³

كانت الاستعدادات الحربية تجري ببطء في مملكة أراغون بسبب إفلاس الخزينة، ومع ذلك تمكن ملك أراغون بيدرو الثالث من حشد ثمانمائة فارس وثلاثة آلاف راجل أغلبهم من الموكارس في مرسى طرطوشة (Tol taza)، وجمع له من المؤن والأقوات والأسلحة ما يكفي، ثم عبر بهم البحر إلى جزيرة ميورقة حيث توقف فيها بضعة أيام للاستراحة، ومراجعة الخطط العسكرية، وقد تسربت أنباء هذه الحملة إلى أمير جزيرة ميورقة - وكان مسلما وخاضعا لملك أراغون- الذي كان يراقب تحركات الأساطيل الصليبية، وخاصة أسطول أراغون دوما، وباهتمام شديد خوفا من هجوم مفاجئ يشنه على بلاده، وعندما علم من جواسيسه بنية ملك أراغون، أرسل رسلا لينذر أهلها بقرب الهجوم الصليبي من قبل الملك الأراغوني، وأوصى هؤلاء الرسل أن يبذلوا قصارى جهدهم للوصول إلى القل قبل الأسطول الأراغوني، وأن يتجنبوا محاذاة ذلك الأسطول أو الاقتراب منه. فأسرع الرسل إلى القل وأدوا رسالتهم لأهلها، ولما لم يكن لدى أهل هذا المرسى الوقت الكافي للاستعداد لمواجهة الهجوم المرتقب، لا سيما وأنه لم يكن به من التحصينات والأسوار ما يساعدهم على المقاومة، لذلك لم يجدوا بدا من الرحيل عن بلادهم حاملين معهم أموالهم وذخائرهم، والاعتصام بالجبال، حتى إذا ما وصل الأسطول الأراغوني إليها في سنة 681هـ/28 جوان 1282م وجدها خالية تماما من السكان، فنزل بها وشرع في تحصينها لاتخاذها مركزا لعملياته.²⁴

وتتمكن أهالي قسنطينة من الاطلاع على مخططات ابن الوزير فبعثوا برسالة مكتوبة إلى السلطان الحفصي أبي إسحاق يعلمونه بالأمر، وكان ذلك كما يذكر ابن القنفذ أنه في يوم 27 رمضان من سنة 679هـ/1280م، لكن السلطان الحفصي لم يعر اهتماما للرسالة بعد أن أرسل إليه ابن الوزير تكذيبا لما كتبه له سكان قسنطينة.²⁵

وفي أواخر سنة 680هـ/1281م أعلن ابن الوزير ثورته في قسنطينة، وأعلن نفسه أميرا مستقلا عن السلطنة الحفصية، مرتكبا في ذلك خطأ استراتيجيا لأنه لم ينتظر وصول القوات الأراغونية، ويبدو

أن السلطان الحفصي أبا إسحاق قد شعر باتصالات ابن الوزير مع ملك أراغون؛ فأدرك أبعاد هذه الثورة، وعلى الرغم من انهماكه بإخماد ثورة ابن مرزوق؛ فقد بادر إلى القضاء على ثورة ابن الوزير، فأرسل ابنه أبي فارس بسرعة لمواجهة ابن الوزير، وكان واليا على بجاية، فتوجه ابنه إلى قسنطينة وقام بحصارها في غرة ربيع الأول من سنة 681هـ/9 جوان 1282م، وحاول ابن الوزير خداع أبا فارس بمطاولته ريثما تصل إليه النجدة المرتقبة، ولم يطل فترة الحصار إذ أن أهل قسنطينة كانوا يمتقنون ابن الوزير، فساعدوا أبا فارس في اقتحام المدينة، وقتل ابن الوزير وأخاه وأعوانهما، وعلقت رؤوسهم على أسوار المدينة، وأرسل الخبر إلى السلطان الحفصي بتونس، ثم دخل أبو فارس إلى قسنطينة ومشى في سككها، وأمر بإصلاح سورها وقناطرها، ثم عاد إلى بجاية بعد أن أقام في قسنطينة لمدة ثلاثة أيام²⁶. والمتمعن في ثورة ابن الوزير يدرك أن ثورته هذه لم يكتب لها النجاح، وهذا لعدة أسباب منها: أ-عدم تأييد أهالي قسنطينة لهذا الثائر. ب- وجود ابن السلطان أبي فارس عبد العزيز واليا على بجاية، وقرب بجاية من مدينة قسنطينة، ج-تأخر وصول القوات الأراغونية لنجدته. كل هذه الأسباب عجلت بهزيمة ابن الوزير، والتخلص منه في فترة وجيزة، وتعيين أبي محمد عبد الله بن بوفيان الهرغي واليا جديدا لقسنطينة، وبالتالي رجعت المدينة لسلطة الحفصيين²⁷.

3. 2 هجوم الجيش الأراغوني على مدينة القل 681هـ/1282م:

بعد القضاء على ثورة ابن الوزير أدرك ملك أراغون أنه تأخر كثيرا في نصرة حليفه، ولكنه لم يجد بدا من النزول في مرسى القل، وتغفل المصادر الإسلامية ما حدث بعد نزول ملك أراغون بيدرو الثالث بمدينة القل، لكن المؤرخ دسكلوت يذكر أن ملك أراغون بعد نزوله من البحر قام باحتلال مدينة القل، وكانت خاوية على عروشها، وأسكن جيشه في منازلها، وكان الأهالي يحيطون بالمدينة من فوق المرتفعات، وأعلموه بأنهم مستعدون لعقد الصلح معه على أن يرحل من المدينة مقابل مال يقدمونه له لكن ملك أراغون رفض هذا العرض، ثم أرسل ملك أراغون طلائع جيشه ترتاد ما وراء خطوط التحصين لتعلم مدى قوة استعداد الإسلامي للمقاومة، فلما رأى المسلمون هذه الطلائع تصدوا لمقاومتها، ولما بلغت هذه الأنباء مسامع ملك أراغون أصدر أوامره لجيشه بالتقدم نحو الجبال،

من طرق جانبية، ولم يشعر المسلمون إلا والجيش الأراغوني قد أحرق بهم، فقتل الكثير من المسلمين، ولم ينج منهم إلا القليل.²⁸

توجه الجيش الأراغوني بعد ذلك ولمدة ثلاث ساعات إلى مدينة أخرى؛ وربما كانت بجاية أو بونة (عنابة) فاستولى على مخازن الحبوب والكتان والحريز وغيرها، وأباحها لجنده، واستأثر الملك الأراغوني بالحريز، وبعد أن نهبوا المدينة أضرم فيها النيران، ورجع إلى القل، يحمل معه ألفي رأس من البقر، وعشرين ألف رأس من الغنم والمعز، وعددا من الأسرى، ولما وصل إلى القل وجد المسلمين قد حشدوا الجيوش لقتاله، وأخذوا يشنون عليه الغارات المتكررة، والمفاجئة على جيشه، فيكبدونه خسائر كبيرة ثم ينسحبون إلى الجبال، فقرر ملك أراغون الدخول معهم في معركة كبيرة، وقد حاول المسلمون التصدي له، لكنهم لم يستطيعوا الصمود طويلا، لأنه كان يتفوق عليهم من حيث العدة والعتاد؛ فلم يجد المسلمون بدا من التراجع والاعتصام بالجبال، الأمر الذي جعل ملك أراغون بيدرو الثالث يكف عن ملاحقتهم في الجبال لما في ذلك من خطورة كبيرة على جيشه.²⁹

قرر ملك أراغون عقد مجلس للتشاور مع أركان حربه، وتقرر ضرورة العمل على احتلال مدينة قسنطينة، واتخاذها كقاعدة لاحتلال باقي مدن المغرب الإسلامي، وأرسل رسله إلى بابا روما مارتين الرابع (Martinus IV) (1281-1285م) يطلب منه المساعدة في احتلال بلاد المغرب الإسلامي، والعمل على نشر الديانة النصرانية في أقاليمه، لكن بابا روما رفض طلبه بحجة أن الملوك العظام من الألمان والإنكليز وغيرهم لم يتمكنوا من تحقيق آمال البابوية، فكيف بملك صغير مثله قادر على تحقيق هذا المشروع الضخم؟ وخاصة وأن حملة لويس التاسع التي جرت حوادثها في 669هـ/1270م وفشله الذريع لا زالت ماثلة في أذهانه، بالإضافة أن مارتان الرابع كان فرنسيا، ومناصرا لملك صقلية شارل أنجو وكان فرنسيا مثله، ولم يكن يرغب في مساعدة عدو الأسرة المالكة بصقلية، لأن بيدرو الثالث ملك أراغون كان عدوا لشارل أنجو ملك صقلية.³⁰

استمرت المناوشات بين جيش المسلمين والقوات النصرانية، والكل يرتقب المعركة الحاسمة، وكانت في مرسى القل تربض 140 سفينة مملوءة بالجند والعتاد تنتظر الأوامر، وفي تلك الأثناء الحرجة قدم

وفد من نصارى صقلية يعرض على بيدرو الثالث ملك أراغون عرش الجزيرة، ويعدّه بتقديم العون بالرجال والأموال ضد الفرنسيين الذين أزهقوا أهالي صقلية بالضرائب، ولما كانت المقاومة الإسلامية تشتد يوما بعد يوم، وتيقن ملك أراغون استحالة تحقيق أحلامه التوسعية في قسنطينة أو الثبات في مدينة القل، جمع رجاله وأعلمهم بقبول طلب الوفد الصقلي، فتقرر الانسحاب من القل في النصف الثاني من شهر أوت 681هـ/1282م أي بعد أقل من شهرين من استقراره في مدينة القل، وقام الجيش الأراغوني بإحراق مدينة القل، فلما دخلها الأهالي وجدوها قد دمرت كلية وأصبحت خراباً³¹.

3. 3 مهاجمة سواحل المغرب الأدنى والأوسط واحتلال جزيرة جربة 688هـ/1289م:

اختلف المؤرخون حول تاريخ احتلال جزيرة جربة من طرف الأراغونيين فابن القنفذ ذكر أنه تم في سنة 683هـ/1284م وكذلك وافقه المطوي وبرنشفيك وأندري جوليان، وأما ابن خلدون فقد ذكر أن تاريخ هذا الاحتلال قد تم في سنة 688هـ/1289م، وفي الحقيقة فالصواب كما ذكره ممدوح حسين هو ما اختاره ابن خلدون أي في سنة 688هـ/1289م، وهذا لأن ملك أراغون كان في سنة 683هـ/1284م مشغولاً بأمر جزيرة صقلية إذ كان النزاع وقتئذ لا يزال محتدماً بينه وبين شارل صاحب أنجو على عرش مملكة الصقليتين والذي كان لا يزال على قيد الحياة حيث أنه توفي في 6 جانفي 1285م، ذلك النزاع الذي أسفر فيما بعد عن تفكك تلك المملكة إلى مملكة نابلي التي احتفظ بها الأنجويون، ومملكة صقلية التي فاز بها الأراغونيون، وتبعاً لذلك فإننا نستبعد أن يكون بيدرو الثالث ملك أراغون قد شغل نفسه بأمر إفريقية، قبل وفاة شارل أنجو وتصفية مشكلة صقلية، كما أننا لا نتفق مع محقق كتاب الأدلة البيئية النورانية لابن الشماخ الذي جعل دي لوريا بعمارته في البحر يعرض على ضباطه فكرة احتلال جزيرة جربة واعداء إياهم بغنائم كثيرة فاهتروا فرحاً، ذلك أنه جعل هذا الاحتلال كأنه صدفة أو فكرة طارئة وليدة ساعتها، والحقيقة كما نراها هي أن ذلك الاحتلال كان بتخطيط وتصميم مسبق، وكان المقرر له أن يكون خطوة أولى في سبيل احتلال بلاد المغرب الإسلامي بأكمله³².

وعلى الرغم من فشل ملك أراغون بيدرو الثالث في السيطرة على مدينة القل، واحتلال قسنطينة، إلا أن ذلك الفشل لم يضع حدا لمطامعه في إفريقية، لا سيما وأن ظروفها الداخلية كانت مشجعة له على مواصلة العمل في سبيل تحقيق تلك المطامع هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن ضم صقلية إلى مملكة أراغون جعلتهم يقتربون إلى إفريقية أكثر من السابق، وأوجد للأراغونيين حافزا قويا لبسط نفوذهم عليها، ثم اعتقاد ملك أراغون أن أبا حفص عمر (683-694هـ/1284-1295م) السلطان الحفصي الجديد الذي اعتلى العرش بمساعدة منه هو صنيعته، فضلا عن أنه كان أضعف من أن يتصدى له من ناحية ثالثة، ولذلك أخذ الأسطول الأراغوني الذي كان يعتبر القوة البحرية الثالثة في حوض البحر الأبيض المتوسط بعد البندقية وجنوة- يجوب البحر قبالة سواحل إفريقية وجزرها، ويشن الغارات عليها كلما واثته الفرصة، لا سيما جزيرة جربة التي ألح في هجومه عليها نظرا لأهميتها البالغة كونها هي الأكثر صلاحية لاتخاذها قاعدة لعملياته العسكرية، ويعبر ابن خلدون في معرض حديثه عن السلطان أبي حفص عمر بقوله: "كان من أعظم الحوادث تكالب العدو في أيام هذا السلطان على الجزر البحرية"³³.

واعتمد ملك أراغون بيدرو الثالث نفس الخطى التي سار عليها الأمير النورماني روجار الثاني من قبل حينما استولى على سواحل بلاد المغرب الأوسط والأدنى، فكان قائد أسطوله رجار دي لوريا (Roger di Loria) يوجه ضربة في ناحية، ثم يسارع لتوجيه ضربة أخرى في ناحية ثانية، وهو في غضون ذلك لم يكن يغفل عن جربة، بل كان يرقب فيها الغرة مثلما كان يفعل جرجي الأنطاكي، لقد هاجمها مرارا ولكن مقاومة أهلها الشديدة كانت تضطره للتراجع عنها، وفي سنة 683هـ/1284م هاجم قابس ففشل في احتلالها، ولكنه تمكن من أسر عدد من أهلها، وشهدت سنتا 685-686هـ/1286 و 1287م كثيرا من تلك الغارات الرهيبة التي نجعل تفاصيلها، وهذا في عهد ملك أراغون ألفونسو الثالث (1285-1291م) الذي خلف والده بيدرو الثالث بعد وفاته في سنة 1285م، وفي سنة 686هـ/1287م تمت مهاجمة سكان جزر قرقنة، وسكان مرسى الخرز (القالبة حاليا) التي دمرها ونهبوا أموالها، ثم تم احتلال جزر قرقنة في سنة 687هـ/1288م، بعد أن قام

ملك أراغون بثلم أسوارها ثم نهبها وحمل كثيرا من أهلها أسرى، وغادرها بعد أن أضرم النار فيها، ثم حاول مهاجمة ميناء تونس بعد ذلك ولكن يقظة أهلها ومسارعتهم للتصدي له فوتت عليه الفرصة فارتد خائبا، ليهاجم جربة من جديد في نفس العام إلا أنه أخفق في احتلالها، فهاجم مدينة القل وتمكن من اقتحامها فأباحها لجنده الذين انتهبوا، وتركوها خاوية، كما تم مهاجمة شبه جزيرة ريس وساحل سوسة والمهدية³⁴.

وفي بداية سنة 688هـ/1289م عاد ملك أراغون ألفونسو الثالث لمهاجمة جربة من جديد ففشل في احتلالها أيضا، وأعاد الكرة في شهر رجب من نفس العام 688هـ/1289م بأسطول كبير مكون من سبعين قطعة، وهب أهلها للدفاع عن بلدهم، ولكنه هزمهم هذه المرة، ونزل في الجزيرة، حيث أباحها لجنده فانتهبوها وأسروا كثيرا من أهلها، عدا عن ما قتلوه منهم، ورموه في آبارها، فيذكر ابن خلدون أنهم قاموا بنهب الأموال وحملوا أهلها أسرا وسبيًا، فقتل إنهم بلغوا ثمانية آلاف بعد أن رموا الرضع في الجبوب (الآبار العميقة)، حتى أنهم أخذوا معهم الزيت والزبيب فحملوا في سفنهم، وأرسلوا بهذه الغنائم إلى جزيرة صقلية، وفرضوا على سكان جربة جزية قدرها ابن خلدون بمائة ألف دينار تقدم في كل سنة، وتم بناء حصن بجزيرة جربة على ساحلها القبلي المعروف بالقشتيل أو قسطيل الواد كما يسميه الجري، والذي أصبح مقرا للحامية الأراغونية، كما أصبح المرسى القريب منه في الجزيرة قاعدة للأسطولين الأراغوني والصقلي، واستمر الوجود الأراغوني في جزيرة جربة أكثر من نصف قرن حيث لم يتم تحريرها من الاحتلال الأراغوني إلا في أواخر 740هـ/1339م³⁵.

بعد نجاح الأراغونيين في احتلال جزيرة جربة قام ملكهم ألفونسو الثالث بتعيين دي لوريا حاكما على جربة، وأمره بمواصلة جهوده، فقام هذا الأخير بمهاجمة باقي جزر إفريقية القريبة من جزيرة جربة، فاحتل جزر تغليسية وتاوسخت وبين البحرين، وبذلك سيطر على كامل بحر إفريقية، وأصبح من الطبيعي أن يمد بصره إلى برها، فهاجم في العام الموالي أي في سنة 689هـ/1290م مرسى القل كما حاصر بونة، وتمكن من أسر أهلها، ولكنه أخفق في احتلالها نظرا لشدة المقاومة التي واجهته، فاندحر عنها خائبا³⁶.

3. 4 محاولة احتلال المهديّة في سنة 688هـ/1289م أو 689هـ/1290م:

بعد أن نجح ملك أراغون ألفونسو الثالث في احتلال جزيرة جربة، اتجهت الأنظار بعد ذلك إلى المهديّة، وهذا بفضل موقعها المتوسط وحصانتها، بحيث تعد أفضل منطلق لمن أراد التوسع في بلاد إفريقية برا، ولذلك كانت معظم الحملات الصليبية التي مرت بإفريقية تتجه نحوها، ولم تكن هذه الحقيقة لتخفى على دي لوريا، ولذلك فإنه بعد احتلاله لجزيرة جربة بفترة وجيزة، قرر التوجه إلى المهديّة لاحتلالها أيضاً، ففي سنة 688هـ/1289م أو في سنة 689هـ/1290م كما يذكر ابن خلدون، ويذكر لنا المسعودي الباجي أن الأراغونيين حاولوا عدة مرات احتلال المهديّة لكنهم لم يتمكنوا من ذلك، فحاول الأراغونيين في هذه المرة مفاجئة أهلها بغتة، ولكن أهالي المدينة كانوا مستعدين لمواجهة هذا الاحتلال، ولما نزل العدو بأرض المهديّة أرسل سكانها يستنجدون بإخوانهم القريبين منهم، ويذكر لنا الدباغ أنه لما نزل العدو بالمهديّة بلغ الخبر إلى الشيخ أبي علي سالم القديدي فتمكن من حشد عدد كبير أهل القيروان، ومن بني جرير، فأقبل بمن معه من الرجال على قصر الرباط، وكان قريباً من مرسى العدو، وجرى القتال بين الطرفين وأسفرت المعركة بهزيمة كبيرة للأراغونيين، حيث قُتل منهم نحو مائة رجل، ومات من أهل المهديّة ثلاثة رجال، وانسحب دي لوريا ومن معه من الأراغونيين من المهديّة بعد إقامة خمسة أيام³⁷.

الحملات الصليبية على مدن وسواحل المغرب الأدنى والأوسط خلال الربع الأخير من القرن 7هـ/13م

المدينة	تاريخ الحملة	نتائج الحملة
فسنطينة	681هـ/1282	محاولة الاحتلال والفشل الذريع
القل	681هـ/1282	قتل الكثير من المسلمين والاستيلاء على الكثير من الغنائم وإحراق المدينة، والفشل في احتلالها
قابس	683هـ/1284م	أسر العديد من سكانها والفشل في احتلالها
جزر قرقة	686هـ/1287م	الفشل في احتلالها
مرسى الخزر (عنابة)	686هـ/1287م	تدمير أسوار المدينة ونهبها وحمل الأسرى
تونس	686هـ/1287م	مهاجمة مدينة تونس ومحاولة الاستيلاء على الميناء

مهاجمة المدينة ودخولها ونهبها ثم مغادرتها	686هـ/1287م	القل (مرة ثانية)
احتلال هذه الجزر	687هـ/1286م	جزر قرقنة
قتل الرجال وسبي النساء وإحراق المحاصيل الزراعية والقيام بأعمال السلب والنهب	686 أو 687هـ/ 1287 أو 1288م	شبه جزيرة ريس، سوسة، المهديّة
احتلال الجزيرة لمدة 50 سنة وأسر 8 آلاف إنسان، ورمي الرضع في الآبار العميقة ونهب الثروات وفرض الجزية	688هـ/1289م	جربة
احتلال هذه الجزر وتدمير أسوارها وأسر سكانها وحرق المدن	687هـ/1289م	جزر قرقنة
الهجوم على المدينة وهزيمة كبيرة للجيش الأراغوني نحو 100 رجل، ومقتل ثلاث رجال من سكان المهديّة	688 أو 689هـ/ 1289 أو 1290م	المهديّة

المصدر: الجدول من إنجاز الباحث

نلاحظ من خلال هذا الجدول أن الحملات الأراغونية على سواحل المغرب الأدنى والأوسط مع أواخر القرن 7هـ/13م هي نفسها تقريبا التي قام بها النورمان في القرن 6هـ/12م، باستثناء قسنطينة والقل.

4. انعكاسات العدوان الأراغوني على بلاد المغرب الأدنى والأوسط:

من أهم انعكاسات العدوان الأراغوني على بلاد المغرب الأدنى والأوسط نذكر ما يلي:

4.1 سقوط الكثير من المسلمين قتلى وأسرى:

خلف العدوان الأراغوني على سواحل المغرب الأدنى والأوسط سقوط الكثير من القتلى والأسرى بيد المحتلين؛ فتذكر لنا المصادر التاريخية أنه بعد حصار الجيش الأراغوني لمسلمي القل في سنة 681هـ/1282م أصدر ملك أراغون أوامره لجيشه بالتقدم نحو الجبال، ولم يشعر المسلمون إلا والجيش الأراغوني قد أحرق بهم، فقتل الكثير من المسلمين، ولم ينج منهم إلا القليل، وبعد أن فشل الأراغونيين في سنة 683هـ/1284م في احتلال قابس قاموا بأسر الكثير من سكانها، وشهدت سنتا 1286 و 1287م كثيرا من تلك الغارات الرهيبة، ففي سنة 686هـ/1287م قام الأراغونيون بمهاجمة سكان جزر قرقنة ومرسى الخرز (القالة حاليا)، وأخذ الكثير من أهلها أسرى، كما تم مهاجمة

شبه جزيرة ريس وساحل سوسة والمهدية، وكان الأراغونيين يقوم بقتل الرجال وسبي النساء، وبعد احتلال جزيرة جربة قام الأراغونيين كما يذكر ابن القنفذ بأسر من الشباب الأقوياء والشابات الحسنات حوالي ثمانية آلاف، وقتلوا الأطفال الصغار، ويضيف ابن خلدون أنه بعد سقوط جربة بيد الاحتلال الأراغوني، تعرض مسلمو هذه الجزيرة للتنكيل حيث تم قتل الرجال وأسر النساء، وأصدرت الأوامر برمي الأطفال الرضع في الجبوب.³⁸

4. 2 احتلال بعض المدن وتخريب بعضها الآخر:

تمكن الجيش الأراغوني من احتلال جزيرة جربة وأصبح أهلها خاضعين للاحتلال النصراني، ولم يعد للحفصيين أية سلطة على هاته الجزيرة، ودام هذا الاحتلال كما يذكر ابن خلدون أكثر من نصف قرن، إذ لم يتم تحريرها إلا في أواخر 740هـ/1339م، وبعد احتلال الجزيرة قاموا بنهب الأمتعة والأموال والزيت والزبيب، فحملوا في سفنهم التي هي نحو السبعين وفي سفن الجزيرة والتي هي نحو الثلاثين وأرسلوا بهذه الغنائم إلى جزيرة صقلية، وأثناء حصار مدينة قسنطينة توجه الجيش الأراغوني إلى إحدى المدن القريبة منها، ولم تذكر لنا المصادر اسم هذه المدينة؛ فتم الاستيلاء على مخازن الحبوب والكتان والحريز وغيرها، واستأثر الملك الأراغوني بالحريز، وبعد أن تم نهب المدينة قاموا بإحراقها، ورجع بعدها الأراغونيين إلى القل، يحملون معهم ألفين رأس من البقر، وعشرين ألف رأس من الغنم والمعز، ولما فشل ملك أراغون في احتلال قسنطينة، قام الجيش الأراغوني بإحراق مدينة القل، فلما دخلها المسلمون وجدوها قد دمرت كلية، وفي سنة 686هـ/1287م تم مهاجمة سكان مرسى القالة، واحتلالها بعد أن تم تحطيم أسوارها قاموا بنهب المدينة، وغادروها بعد أن أضرموا النار فيها، وفي سنة 689هـ/1290م تمكن الأراغونيون من حصار مرسى القل وحصار مرسى الخزر، وأسر أهلها.³⁹

4. 3 السماح ببناء الكنائس ودفع الجزية لمملكة أراغون:

كان لضعف السلطنة الحفصية وعدم قدرتها على مواجهة العدوان الأراغوني، وفشلها في تحرير بعض جزرها كجزيرة جربة إلى عقد بعض المعاهدات بين الطرفين كان في أغلبها لصالح مملكة أراغون، وقد تم عقد الصلح كما يذكر برشنيك في 2 جوان 1285م، ومن خلال التمعن في نصوص المواد

التي أبرمت بين الطرفين نلاحظ أن المادتين 17 و36 اللتين تضمنتا السماح بوجود الكنائس في تونس، تقام فيه الشعائر الدينية لرعايا أراغون، ويسمح لهم أيضا بحمل كتبهم الدينية ودفن موتاهم في أراضي تونس، ودفع الجزية لملك أراغون فقد نصت المادة 34 أنه يجب على ملك تونس أن يدفع لملك أراغون وصقلية كل سنة ضريبة صقلية ثلاثة وثلاثين ألفا وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين دينارا بيزنطيا وربع، وأكدت المادة 39 أن يدفع ملك تونس ضريبة لسكان كاتالونيا الذين يتمتعون بالأفضلية على بقية الأمم، وذلك بثمان محدد. وقد أكدت المعاهدة أن ملك أراغون وصقلية هو الذي يقوم مقام آل أنجو، فيما يتعلق بالحقوق والديون التي اكتسبها على حساب تونس، وبوصفهم أصحاب صقلية، وبناء على الديون فإن الضريبة السنوية المفروضة ستدفع ابتداء من ذلك التاريخ من السلطان الحفصي إلى ملك أراغون. وقد أكدت معاهدة 686هـ/1287م بين الدولة الحفصية ومملكة أراغون على هذا البند، وفي المادة 25 نصت على أن تجار الدولة الحفصية يدفعون في أراضي أراغون ضريبة العشر عن البضائع ونصف العشر عن كل ما يحملونه من ذهب وفضة، بالمقابل لا يدفع تجار مملكة أراغون ضريبة العشر عما يحملون من القمح والشعير، وكذلك لا يدفع تجار مملكة أراغون أي ضريبة على البضاعة التي لا يجري بيعها في الدولة الحفصية، ويحق لهم حملها إلى مكان آخر دون أن يدفعوا الرسوم الجمركية عنها، وفي المادة 35 أعطت الحق لملك أراغون بتعيين قائد للحامية العسكرية الموجودة في الدولة الحفصية، ويجب على السلطان الحفصي دفع رواتب القائد والحامية العسكرية. وكان الجنود يعيشون في مدينة تونس في حي منفصل يعرف باسم "رض النصارى"، وكانوا يتمتعون بحرية تامة في القيام بشعائرهم الدينية ويديرون شؤونهم بأنفسهم، كما كانوا معفيين من جميع الرسوم والضرائب⁴⁰.

5. خاتمة:

من خلال ما سبق يمكننا القول أن حملات مملكة أراغون الصليبية على مدن وسواحل المغربين الأدنى والأوسط قد أدت إلى نتائج وخيمة على السكان حيث قُتل الرجال وتم سبي النساء والأطفال، وهُتكت الأعراض، بالإضافة إلى بناء الكنائس وفرض الجزية على السكان، وهجرة البعض الآخر نحو المناطق الداخلية خوفا من الهجمات المباغتة للأساطيل الصليبية، مما أدى ذلك إلى تدهور الإنتاج

الزراعي والصناعي، وهذا كله كان نتيجة لضعف الدولة الحفصية وانحماؤها بإخماد الثورات الداخلية والقضاء على الطامحين للاستيلاء على العرش الحفصي، مع غياب التكتل الإسلامي لمواجهة الخطر المشترك الذي كان يهددهم آنذاك جميعا دون استثناء.

ومن أهم التوصيات في هذا المقام نذكر ما يلي:

- 1- الاهتمام بتحصين الجبهة الداخلية وتقويتها أمام الأخطار الخارجية التي تهددها.
- 2- ضرورة إدراك الأجيال وتوعيتهم بأن العدو يستغل كل فرصة ضعف تمر بها الدولة الإسلامية لتحقيق أطماعه التوسعية والاحتلالية؛ فالمتتبع لحوادث التاريخ يرى أن ما حدث في أواخر القرن 7هـ/13م موضوع الدراسة هو نفسه ما حدث في القرن 6هـ/12م مع الاحتلال النورماني بعد ضعف الدولة الزيرية وتفككها إلى عدة دويلات، ونفس الشيء حدث بعد ذلك في القرن 10هـ/16م مع الاحتلال الإسباني والبرتغالي لسواحل المغرب الإسلامي كله التي كانت آنذاك مفككة إلى عدة دويلات وإمارات ومشيخات متنازعة ومتناحرة.

6. المراجع:

المؤلفات:

- 1- أشباح يوسف، تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ترجمه وعلق عليه: محمد عبد الله عنان، ط2، القاهرة-مصر، مكتبة الخانجي، 1417هـ/1996م.
- 2- برنشفيك روبر، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13م إلى نهاية القرن 15م، نقله إلى العربية: حمادي الساحلي، بيروت-لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988م.
- 3- جوليان شارل أندري، تاريخ إفريقية الشمالية، تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس، الدار التونسية للنشر، ط4، 1983م.
- 4- الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، بيروت-لبنان، منشورات دار مكتبة الحياة، ط2، 1385هـ/1965م.

- 5- الدباغ عبد الرحمن بن مُحمَّد، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: عبد المجيد الخيالي، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، 1426هـ.
- 6- الوزان الحسن بن مُحمَّد، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: مُحمَّد حجي ومُحمَّد الأخضر، بيروت-لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1983م.
- 7- الزركشي مُحمَّد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق: مُحمَّد ماضور، تونس، المكتبة العتيقة، (د. ت).
- 8- حسين ممدوح، الحروب الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري 668-792هـ/1270-1390م، عمان-الأردن، دار عمار، ط1، 1419هـ/1998م.
- 9- المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، قسنطينة-الجزائر، دار البعث، (د. ت).
- 10- المطوي مُحمَّد، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1406هـ/1986م.
- 11- المسعودي الباجي، الخلاصة النقية في أمراء إفريقيا، تقديم وتحقيق وتعليق: مُحمَّد زينهم مُحمَّد عزب، القاهرة-مصر، دار الآفاق العربية، ط1، 1434هـ/2013م.
- 12- المقرئ أحمد بن مُحمَّد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، دار صادر، بيروت-لبنان، 1900م.
- 13- ابن القنفذ أحمد بن حسين، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق: مُحمَّد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، تونس، الدار التونسية للنشر، 1968م.
- 14- الشماع مُحمَّد بن أحمد، الأدلة البيئية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم: الطاهر بن مُحمَّد المعموري، تونس، الدار العربية للكتاب، 1984م.
- 15- التجاني عبد الله بن مُحمَّد، رحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1981م.

- 16- ابن الخطيب لسان الدين، كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق: إ. ليفي برونسفال، بيروت-لبنان، دار المكشوف، ط2، 1956م.
- 17- ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، مراجعة: سهيل زكار، بيروت-لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1421هـ/2000م.

المؤلفات الأجنبية:

1- Ernset Mercier, l'Afrique septentrionale (Bérbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu' a la conquête française 1830, Ernest Leroux éditeur, paris, 1988.

المقالات:

- 1- وجدي خلف الله، "حملة خايمي الأول الصليبية على جزيرة ميورقة وبداية التوسعات الأراغونية في حوض البحر المتوسط (627هـ/1229م)"، مجلة دراسات وأبحاث، العدد 24، 2008م، صص 190-202.
- 2- مسعود كربوع، "العلاقات السياسية والصلات التجارية بين الدولة الزيانية ومملكة أراغون أواخر العصر الوسيط القرن (7-9هـ/15م) من خلال بعض نصوص المراسلات العربية"، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 07، العدد 03، ديسمبر 2023م، صص 62-93.
- 3- المزودة مُجَد، "معاهدة 684هـ/1285م بين الدولة الحفصية ومملكة أراغون دراسة وثائقية تحليلية"، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 49، العدد 05، 2022م، صص 335-348.

7. الهوامش:

¹ مُجَد بن إبراهيم الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق: مُجَد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، (د. ط)، (د. ت)، صص 23-41؛ ممدوح حسين، الحروب الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري 668-792هـ/1270-1390م، دار عمار، عمان-الأردن، ط1، 1419هـ/1998م، صص 451؛ روبر بارنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13م إلى نهاية القرن 15م، نقله إلى العربية: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 1988م، ج1، ص104.

- ² مُحمَّد المطوي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، (د. ط)، 1406هـ/1986م، ص232.
- ³ مُحمَّد بن أحمد الشماع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم: الطاهر بن مُحمَّد المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، (د. ط)، 1984م، ص ص74-75؛ أحمد بن حسين بن القنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق: مُحمَّد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، (د. ط)، 1968م، ص ص135-136؛ برنشفيك، المرجع السابق، ج1، ص105.
- ⁴ - الذواودة: هم أبناء داود بن مرداس بن رياح إحدى بطون قبائل بني هلال من القبائل العربية العدنانية أنظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص44.
- ⁵ - مُحمَّد بن الأحمر: هو الغالب بالله الشيخ أبو عبد الله مُحمَّد بن يوسف بن مُحمَّد بن نصر بن قيس الخزرجي، من ولد الصحابي الجليل سعد بن عباد، مولده في أرجونة إحدى حصون قرطبة، تمكن في سنة 629هـ/1232م من تأسيس مملكة غرناطة بعد ضعف دولة الموحدون. ولمزيد من التفصيل أنظر: أحمد بن مُحمَّد المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، دار صادر، بيروت-لبنان، (د. ط)، 1900م، ج1، ص ص447-448؛
- ⁶ - لفت الموقع الجغرافي لإمارة بني عبد الواد اهتمام ملوك أراغون، فهاجموا سواحلها المقابلة لبلادهم في حركة توسعية بعد أن ضموا جزيرة ميورقة في سنة 627هـ/1229م، لكنهم بعدة فترة قصيرة تفتنوا إلى أن سياستهم العدائية لا تفيدهم، وأن الظروف لا تسمح بالقيام بحملاتهم العسكرية، وأرادوا الاستفادة من الأرباح التي يمكن أن يحصلوا عليها من خلال التجارة بين البلدين، فقاموا بعقد عدة معاهدات لتنظيم العلاقة بينهم وبين أمراء الدولة الزيانية، وقام ملوك أراغون بتشجيع رعاياهم على النزول بموانئ المغرب الأوسط ومدنه. مسعود كرنوع، "العلاقات السياسية والصلات التجارية بين الدولة الزيانية ومملكة أراغون أواخر العصر الوسيط القرن (7-9هـ/15م) من خلال بعض نصوص المراسلات العربية"، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 07، العدد 03، ديسمبر 2023م، ص64.
- ⁷ عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، (د. ط)، 1421هـ/2000م، ج6، ص ص434-435؛ الزركشي، المصدر السابق، ص43؛ ابن الشماع، المصدر السابق، ص75؛ برنشفيك، المرجع السابق، ج1، ص106؛ شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقية الشمالية، تعريب: مُحمَّد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، ط4، 1983م، ج2، ص182.

- ⁸ الزركشي، المصدر السابق، ص 43.
- ⁹ ابن القنفذ، المصدر السابق، ص 139؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 436؛ حسين، المرجع السابق، ص 453.
- ¹⁰ - يذكر المؤرخون أن هذا الدعي اسمه الحقيقي هو أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة من بيوتات بجاية الطارئین عليها من المسيلة فلا صلة له بالبيت الحفصي، تربى في بجاية، ثم سافر منها والتحق بسجلماسة، واختلط مع عرب المعقل، وانتمى إلى أهل البيت، وادعى أنه الفاطمي المنتظر، ولكن نفوذه الحقيقي لم يظهر إلا عند عرب طرابلس، حيث صرح أحد موالي الوثائق الحفصي ويدعى نصير أن لديه شيها بابن الوثائق وهو الفضل. أنظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 441-442؛ برنشفيك، المرجع السابق، ج 1، ص 116-117.
- ¹¹ الزركشي، المصدر السابق، ص 45؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 442؛ ابن القنفذ، المصدر السابق، ص 141-143.
- ¹² الزركشي، المصدر السابق، ص 46-47؛ ابن القنفذ، المصدر السابق، ص 142-145؛ حسين، المرجع السابق، ص 454-455.
- ¹³ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 448-449؛ برنشفيك، المرجع السابق، ج 1، ص 135-134.
- ¹⁴ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 449؛ برنشفيك، المرجع السابق، ج 1، ص 135؛ ابن القنفذ، المصدر السابق، ص 148.
- ¹⁵ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 450-451؛ ابن القنفذ، المصدر السابق، ص 150؛ برنشفيك، المرجع السابق، ج 1، ص 135-136؛ المطوي، المرجع السابق، ص 279.
- ¹⁶ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 453-454؛ برنشفيك، المرجع السابق، ج 1، ص 136.
- ¹⁷ الزركشي، المصدر السابق، ص 45؛ حسين، المرجع السابق، ص 454.
- ¹⁸ - تأسست مملكة أراغون بعد أن قام سانشو الكبير (Sancho EL Mayour) (1000-1035م) ملك النصارى أو ملك نبرة حسب الروايات العربية بتقسيم مملكته الواسعة بين أولاده، وكانت منطقة أراغون من نصيب ابنه الغير الشرعي راميرو (Ramiro) (1035-1063م)، وقد توسعت هذه المملكة في شرق الأندلس، وتمكنوا في عهد خايمي الأول من احتلال جزيرة ميورقة، وفي الربع الأخير من القرن 13م ازداد التوسع الأراغوني في حوض البحر الأبيض المتوسط ليصل إلى إيطاليا وجزيرة صقلية. أنظر: لسان الدين بن

الخطيب، كتاب أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق: إ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف، ط2، بيروت-لبنان، 1956م، ص ص337-338؛ يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ترجمه وعلق عليه: مُحمَّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة-مصر، ط2، 1417هـ/1996م، ص12؛ وجدي خلف الله، "حملة خايمي الأول الصليبية على جزيرة ميورقة وبداية التوسعات الأراغونية في حوض البحر المتوسط (627هـ/1229م)"، مجلة دراسات وأبحاث، العدد 24، سبتمبر 2008م، ص190.

¹⁹ حسين، المرجع السابق، ص ص468-469؛ أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، دار البعث، قسنطينة-الجزائر، (د. ط)، (د. ت)، ص351.

²⁰ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص439؛ ابن القنفذ، المصدر السابق، ص139؛ المدني، المرجع السابق، ص352؛ Ernset Mercier, l'Afrique septentrionale (Bérbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu' a la conquête française 1830, Ernest Leroux éditeur, paris, 1988, p217.

²¹ ابن قنفذ، المصدر السابق، ص139؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص440؛ برنشفيك، المرجع السابق، ج1، ص113.

²² ما ذكره المؤرخ برنارد دسكلوت الذي نقل عنه توفيق المدني، وعلى رأي حسين ممدوح أمر مبالغ فيه، إذ أن عدد هؤلاء الجند لم يصل في أي وقت من الأوقات حتى إلى خمس هذا الرقم. أنظر: حسين، المرجع السابق، ص472.

²³ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص439؛ المدني، المرجع السابق، ص353؛ حسين، المرجع السابق، ص472.

²⁴ برنشفيك، المرجع السابق، ج1، ص114؛ الحسن بن مُحمَّد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: مُحمَّد حجي ومُحمَّد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط2، 1983م، ج1، ص54؛ حسين، المرجع السابق، ص ص472-473؛ المدني، المرجع السابق، ص ص354-355.

²⁵ المطوي، المرجع السابق، ص242؛ ابن القنفذ، المصدر السابق، ص139.

²⁶ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص439-440؛ المدني، المرجع السابق، ص355؛ حسين، المرجع السابق، ص ص473-474؛ Mercier, op. cit, p218

- ²⁷ المطوي، المرجع السابق، ص ص 242-243؛ المدني، المرجع السابق، ص 355؛ ابن القنفذ، المصدر السابق، ص 140.
- ²⁸ حسين، المرجع السابق، ص ص 474-475؛ المدني، المرجع السابق، ص 356.
- ²⁹ حسين، المرجع السابق، ص ص 475-476؛ المدني، المرجع السابق، ص ص 356-357.
- ³⁰ المدني، المرجع السابق، ص 357؛ المطوي، المرجع السابق، ص 243؛ برنشفيك، المرجع السابق، ج 1، ص 114.
- ³¹ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 440؛ المدني، المرجع السابق، ص 358؛ برنشفيك، المرجع السابق، ج 1، ص 114.
- ³² ابن القنفذ، المصدر السابق، ص ص 149-150؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 447؛ المطوي، المرجع السابق، ص 273؛ برنشفيك، المرجع السابق، ج 1، ص 124؛ جوليان، المرجع السابق، ج 2، ص 183؛ حسين، المرجع السابق، ص ص 478-479.
- ³³ حسين، المرجع السابق، ص ص 477-478؛ ابن خلدون، ج 6، ص 447.
- ³⁴ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 448؛ حسين، المرجع السابق، ص 478؛ عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت-لبنان، ط 2، 1385هـ/1965م، ج 2، ص 21؛ برنشفيك، المرجع السابق، ج 1، ص 129؛ جوليان، المرجع السابق، ج 2، ص 183.
- ³⁵ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 447؛ الباجي المسعودي، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تحقيق: محمد عزب، دار الآفاق العربية، القاهرة-مصر، ط 1، 1434هـ/2013م، ص 177؛ ابن القنفذ، المصدر السابق، ص 150؛ حسين، المرجع السابق، ص ص 478-479؛ المطوي، المرجع السابق، ص 274.
- ³⁶ الجيلالي، المرجع السابق، ج 2، ص 21؛ جوليان، المرجع السابق، ج 2، ص 183؛ حسين، المرجع السابق، ص 480.
- ³⁷ المسعودي، المصدر السابق، ص 177؛ عبد الرحمن بن محمد الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: عبد الحميد الخيالي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، (د. ط)، 1426هـ، ج 4، ص 517؛ حسين، المرجع السابق، ص ص 480-481؛ ابن القنفذ، المصدر السابق، ص 150.
- ³⁸ المدني، المرجع السابق، ص 356؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 448؛ الجيلالي، المرجع السابق، ج 2، ص 21؛ ابن القنفذ، المصدر السابق، ص 150؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 447.

- ³⁹ المدني، المرجع السابق، ص 356-357؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص 447-448؛ ابن القنفذ، المصدر السابق، ص 150؛ برنشفيك، المرجع السابق، ج1، ص 124؛
- ⁴⁰ مُجدّ المزودة، معاهدة 684هـ/1285م بين الدولة الحفصية ومملكة أراغون دراسة وثائقية تحليلية، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 49، العدد 05، 2022م، ص ص 340-344؛ برنشفيك، المرجع السابق، ج1، ص ص 126-127.